طقوس ومراسم الموت بالنوبة المصرية: دراسة ميدانية في أنثروبولوجيا الموت

Rituals and Ceremonies of Death in Egyptian Nubia: A Field Study in Anthropology of Death

محمد جلال حسين[1]

Mohamed Galal Hussien [1]

[1] كلية الدراسات الإفريقية العليا. جامعة القاهرة. مصر.mohamed.galal@cu.edu.eg

تاريخ الاستلام: 2021/11/29 تاريخ القبول: 2021/12/10 تاريخ النشر: 2021/12/24

ملخص:

جاء الهدف من الدراسة الراهنة متمثلاً في تسليط الضوء على المراسم والطقوس المتعلقة بالموت في النوبة المصرية، وتحديد الاختلافات في تلك الطقوس وفقًا لمتغيرات العمر والجنس والمكانة الاجتماعية. هذا بالإضافة إلى تحديد مدى مشاركة النساء في تلك الطقوس والمراسم. ولتحقيق هذا الغرض، تم إجراء العديد من المقابلات مع سكان المجتمع النوبي لرصد تلك الممارسات والطقوس والسلوكيات الخاصة بالمحيطين بالمتوفي. اعتمدت الدراسة على مدخل رؤى العالم لتفسير رؤية المجتمع النوبي للطقوس والممارسات المتعلقة بالموت والغرض منها.

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج أهمها؛ (1) يذخر مجتمع النوبة بالعديد من الممارسات والطقوس المتعلقة بالموت التي يغلب على طابعها العام الشريعة الإسلامية. (2) يحذر على المرأة المشاركة ببعض الطقوس كطقوس تشييع المتوفي والدفن. (3) تفرض على المرأة العديد من القيود خلال فترة الحداد، كالبقاء بالمنزل.(4) لا يوجد اختلاف في المراسم الطقوس المتعلقة بالموت باختلاف عمر وجنس المتوفي ومكانته الاجتماعية، باستثناء بعض الأمور الطفيفة التي تختلف باختلاف العمر.

كلمات مفتاحية: طقوس، ممارسات، الموت، الحداد، النوبة.

المؤلف المرسل: محمد جلال حسين، **الإيميل:** mohamed.galal@cu.edu.eg

Abstract:
This study aimed to monitor the ceremonies and rituals of death in the Egyptian Nubia, and determine the differences in those rituals according to the variables of age, gender, and social status. In addition to, determining women's participation in those ceremonies. Therefore, many interviews were conducted with the residents of the Nubian community. The study was based on the introduction of world visions to explain the Nubian society's perception of the rituals and practices of death.
Results; (1) There are many practices and rituals related to death whose general character is Islamic law. (2) It is cautioned for women to participate in some rituals, such as the funeral and burial rituals of the deceased. (3) Many restrictions are imposed on women during the mourning period, such as staying at home.(4) There is no difference in the ritual ceremonies related to death according to the age, gender, and social status of the deceased, with the exception of some minor matters that differ according to age.
Keywords: Rituals; Practices; Death; Mourning; Nuba.

(1) مقدمة

يعد التراث الثقافي اللامادي جزءًا لا يتجزأ من هوية المجتمع المحلي، فهو بمثابة الوعاء الذي يعيد انتاج الهوية والمعاني الثقافية، والمحدد لأنماط التفكير والشعور والسلوك. ومن ثم يحفظ الثقافة من الاندثار (فارس، 2018، ص 19). وتعد العادات الشعبية أحد أنماط ذلك التراث اللامادي، حيث تتميز بقدرتها على التعبير الدقيق عن ثقافة المجتمعات الممارسة لها، وتنبع قدرتها من طبيعتها المتشعبة التي تتميز بأداء الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة، ذلك التشعب الذي جعلها تمثل مرآة لثقافة المجتمع الذي تتواجد به(شعلان، 2000، ص11).

وتعد شعيرة الموت أحد الشعائر التي تتجلى بها العادات الشعبية بشكل واضح، فهي تعبيرًا عن مخطط ثقافي ومجموعة من القيم والمثاليات التي ينقلها الآباء والأجداد ويتعلمها الفرد باعتباره عضوًا في الجماعة أو المجتمع. فعندما يموت شخص ما في أي مجتمع من المجتمعات، تستجيب العائلة والأصدقاء والجيران لحدث الموت بطرق محددة ثقافيًا، حيث تحدد الثقافة الكيفية التي يتم بها التعامل مع جسد المتوفي، وفترة الحداد المناسبة (فارس، 2018، ص 68).

وتنتشر الطقوس الجنائزية في كافة المجتمعات البشرية المختلفة، ونجدها تختلف في أشكالها من مجتمع لأخر ومن ثقافة لأخرى في التفاصيل، ولكنها تبقى ثابتة في أغلب الثقافات البشرية في طابعها العام(زقار بن عيسى، 2019، ص 663). فالموت يمثل الطقس الأخير من طقوس العبور والمرحلة الأخيرة من حياة الفرد، ويتم تنظيم مراسمه في جميع المجتمعات ويحضرها الأقارب الأحياء والأشخاص المقربون للمتوفي وأسرته(Potočnik, 2007, p9).

وعلى الرغم من أن الموت يمثل حتمية كونية؛ إلا أن النظرة إليه والاستجابات الإنسانية تجاهه مختلفة. حيث يشير "ستيفن كيف" غلى أن الموت هو النقطة التي يصطدم عندها المدنس بالمقدس، وإنه حدث طبيعي ولكنه محاط بالغموض والثقافة، كما إنه غارق في الواقع المادي للعمليات الجسدية ولكنه محاط بأفكار وفلسفات مختلفة حول الوداع الطويل (New Zealand Law Commission, 2015, p iv). بينما يشير "ليك" (1998)، إلى أن الموت يمثل "النهاية الحتمية لحياتنا" بينما الفجيعة "تجدد كل مقاصد حياتنا" بعد أن يسلب الموت الأشخاص المقربين لنا(Kiiru, 2014, p 298). في حين يرى "بنسو" أن الموت يعني الانفصال – الانفصال عن حقائق العالم والأحباء والأشياء، وهذا الانفصال يدفع المفجوعين إلى التفكير في معني وقيمة الحياة (Bonsu, 2003, p41).

ولقد كانت تلك الاستجابات والمعتقدات والممارسات المرتبطة بالموت والكيفية التي يتعامل بها الإنسان مع الموت محل اهتمام من قبل علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا، وذلك لما توفره تلك الاستجابات من فهم واضح لطبيعة الحياة الإنسانية والتنظيمات الاجتماعية بالمجتمع والقيم الثقافية السائدة به (فارس، 2018، ص 20).

وقد حول الأنثروبولوجيين الموت من كونه ظاهرة بيولوجية على ظاهرة اجتماعية، وما ترتب على ذلك من ظهور "أنثروبولوجيا الموت" والذي يمثل أحد فروع الأنثروبولوجيا الذي يعنى بدراسة الموت والطقوس المرتبطة به وسلوكيات المحيطين بالمتوفي وتجاربهم الذاتية. وقد مثل كلاً من "روبرت هيرتز"، و"مالينوفسكي"، وفان جنيب"، و"راد كليف براون" الرواد الأوائل لهذا الفرع من العلم، وذلك بما قدموه من إسهامات وتفسيرات متعلقة بالموت وطقوسه (Robben, 2018, p16).

فقد أشار "روبرت هيرتز" إلى أن الموت لا يمثل واقعًا بيولوجيًا مقصورًا على الحزن الفردي الذي يبديه أقارب المفجوعين، ولكنه يستدعي وجود التزامات أخلاقية واجتماعية يتم التعبير عنها في الممارسات الجنائزية التي تقرها الثقافة، كما أكد على أن شعائر وطقوس الموت نتاج اجتماعي متكامل ناجم عن

تصور المجتمع للواقع، ذلك التصور الذي يعكس السياق السوسيوثقافي (الدين والبناء الاجتماعي) للمجتمع. وقد حدد "هيرتز" ثلاثة عناصر رئيسية يشملها الموت، وهي؛ الجسد الخامد، روح المتوفي، والأقارب الأحياء الذين يؤدون أدوارًا مختلفة خلال الفترة الممتدة بين حدوث الوفاة حتى الدفن والذي قسمه "هيرتز" إلى (1) دفن الجثمان، (2) البقاء على مقربة من الجثمان، (3) انفصال الأقارب المفجوعين عن المجتمع ودخولهم في حالة الحداد. فالموت من وجهة نظره لا يحدث في لحظة معينة من الزمن؛ ولكنه عملية ممتدة (فارس، 2018، ص 30، 64).

بينما أشار "فان جنيب" في نظريته عن "طقوس العبور"، إلى أن شعائر وطقوس الموت تعد بمثابة شعائر انتقال، فحياة الفرد من وجهة نظره ما هي إلا مجموعة أو سلسلة من الانتقالات من عمر إلى أخر، ومن مهنة إلى أخرى، وهذه الانتقالات (الميلاد، البلوغ، الزواج، الوفاة) تمثل أزمات حياتيه. ويرى "فان جنب" أن شعائر الانتقال تقع في فئتين؛ الأولى تحدث عندما ينتقل شخص من مكانة اجتماعية إلى أخرى، وتشمل تلك الفئة الطقوس التي تحتفل بأحداث شخصية مهم كالميلاد والبلوغ والزواج. أما الثانية فهي عندما تنتقل عوالم اجتماعية كلية عبر الزمن، وتشمل تلك الفئة الاحتفالات الجمعية والمجتمعية كعيد الميلاد المجيد وعيد الفصح. ويؤكد "فان جنب" على أن شعائر الانتقال تصنف عبر ثلاث مراحل، وهي؛ (1) الانفصال عن الحالة السابقة، (2) الوقوف بعتبة الشعور، إعادة التكامل أو الاندماج على مستوى مختلف. وبتطبيق ذلك على شعائر الانتقال الجنائزي، نجد أن هناك ثلاثة عناصر بنائية؛ (1) شعائر الانفصال (إعداد المتوفي) وهي مرحلة تمهيدية قصيرة نسبيًا، تتسم بشعيرة انفصال تفصل كلاً من الجثمان والأقارب المفجوعين عن المجتمع، وتفرض عليهم ارتداء ملابس ذات ألوان معينة، وتجعلهم يتوخون تابوهات معينة. (2) شعائر الانتقال (دفن الجثمان) وهي تتمثل في انتقال المتوفي من أرض الأحياء إلى العالم الأخر. (3) شعائر الاندماج (خلاص روح المتوفي) وهي شعيرة إدماج أو اندماج، حيث تندمج الروح مع عالم الموتى، ويندمج الأقارب المفجوعين مع المجتمع بعد الانتهاء من التزاماتهم الشعائرية (فارس، 2018، ص 32). وطبقًا لفان جنب، فإن هذه العناصر الثلاث ليست متساوية في كل طقوس المرور أو العبور، حيث نجد أن عنصر الانفصال يكون أكثر أهمية في الشعائر الجنائزية، بينما عنصر الاندماج يكون أكثر وضوحًا في شعائر ومراسم الزواج، أما شعائر الانتقال تتجلى بوضوح في مراسم وطقوس الخطوبة والحمل(السيد، 2011، ص 29).

أما "مالينوفسكي"، فقد ركز على مشكلة الموت وعلاقتها بالمجتمع، تحديدًا "الفقد الاجتماعي"، حيث انصب تركيزه على الكيفية التي من خلالها يشكل موت شخص تدميرًا جزئيًا للتماسك الاجتماعي إلى أن يتم استعادة التوازن أو تشكيل توازن جديد. فشعائر الموت من وجهة نظره هي تعبيرات جمعية عن الشعور الملائم لذلك الموقف، يظهر خلالها الأفراد التزاماتهم تجاه بعضهم البعض وتجاه المجتمع الذي يعيشون فيه (فارس، 2018، ص 34).

وقد تعرض الرواد الأوائل لأنثروبولوجيا الموت للنقد من قبل المستحدثين، وتمثلت أهم الانتقادات التي وجهت إليهم في ارتكاز دراساتهم على المجتمعات التقليدية ككيان منفصل وإهمالهم لعلاقة الموت بالدولة والمجتمع كالاهتمام ببعض الموضوعات التي قام بها هؤلاء المستحدثون والتي دارت حول التلاعب السياسي بالحداد العام، وتدمير الرفات البشرية في الإبادة الجماعية، والتورط المتناقض للدول في المقابر الجماعية واستخراج الجثث من قبل الطب الشرعي. فضلاً عن إهمالهم للأهمية المادية للموت وتركيزهم فقط على الأهمية الاجتماعية للموت، بجانب نظرتهم للموت باعتباره ظاهرة بيولوجية وثقافية واجتماعية مميزة يتم تحليلها ضمن مجال زمني محدد. فالمحدثون يرون أن الحدود القائمة بين الحياة والموت تعد حدودًا مسامية وأن الموت يكن اعتباره بداية لحياة جديدة وشكلاً جديدًا للمعيشة. ومن ضمن الانتقادات الأخرى التي وجهت للرواد الأوائل، تركيزهم على التجارب الذاتية للمعزيين، خاصة فيما يتعلق بنظرتهم للحزن الذي يبديه المعزيين، فقد نظروا إليه باعتباره رد فعل نفسي يمكن أن يتحول إلى أداء ثقافي لتحقيق التضامن الاجتماعي، وتجلى ذلك في نظرة "هيرتز" و"دوركايم" إلى إظهار الحزن من قبل المعزيين – والمتمثل في البكاء وارتداء الملابس ذات الألوان المحددة ثقافيًا والندب والرثاء وخلافه– باعتباره أفعال ليست عفوية، بل هي بمثابة التزام اجتماعي تفرضه الجماعة، وكذلك نظرة "راد كليف براون" للبكاء باعتباره طقس يتطلب أدائه بشكل صحيح. ويرى المحدثون أنه من الأفضل التركيز على التغيرات الثقافية للأنماط العامة للطقوس الجنائزية بدلاً من التركيز على التجارب الذاتية للمعزيين (Robben, 2018, p 20). ولكن على الرغم من تلك الانتقادات، إلا أن مازالت أراء واجتهادات ونظريات الرواد الأوائل تجد لها صدى في العديد من الدراسات الأنثروبولوجية، ولم يقلل الانتقاد الذي وجه لها من قيمتها وإسهامها في مجال أنثروبولوجيا الموت.

ومن ناحية أخرى، فإن لطقوس وشعائر الموت أهمية لا يمكن إغفالها، فهي تعمل على إعادة التوازن الناتج عن موت الفرد، وتأكيد وتدعيم القيم الثقافية والاجتماعية، وإعادة مشاعر الأمن والطمأنينة وتعزيز

وتقوية روابط الجماعة والحد من التوترات النفسية وإعادة تماسك البناء الاجتماعي وتأسيس أنماط التفاعل التي زعزعتها الأزمة. وفي هذا الصدد، يرى "هيرتز" أن وظيفة طقوس وشعائر الموت تتمثل في دعم إعادة تنظيم النظام الاجتماعي، واستعادة الإيمان بالوجود الدائم للمجتمع الذي واجه تحديًا خلقه موت الفرد، كما تسهم تلك الشعائر والطقوس في التأكيد على التضامن بين الأحياء بينما أشار كلاً من "موريس بلوش" و"جوناثان باري" إلى أن الشعائر الجنائزية تساهم في خلق أو إعادة خلق النظام الاجتماعي، فشعائر الموت من وجهة نظرهم عبارة عن كلمات في مواجهة الموت تساهم في المقاومة والحد من السمة السلبية للموت (فارس، 2018، ص 31، 37). ومن ناحية أخرى، أكد "فيفل" على أن الطقوس التي تؤدى للموتى لها تأثير أكبر على الأحياء وليس الموتى (Solomon, 1986, p4). كما أشار "هاجينز" إلى أن طقوس الموت توفر فرصًا لإظهار الحزن للأفراد وفرص لتأكيد علاقة المتوفي بالمجتمع (Huggins, 2019, p 268).

وبالنظر لطقوس ومراسم الوفاة والدفن في المجتمع المصري وما يرتبط بها من عادات، لنجدها تتأثر بالدين تأثرًا بالغًا، كما تتأثر أيضًا بالظروف الاجتماعية والثقافية للمجتمع، ذلك المزج الذي يعطي لنا صورة واضحة عن ثقافة الموت لدى المجتمع المصري بما تشمله من سلوكيات وممارسات وطقوس (السيد، 2011، ص42).

(1–1) أهمية الدراسة

تنبع أهمية الدراسة من أهمية موضوعها، حيث حظي موضوع الموت وما يتعلق به من مراسم وطقوس باهتمام الكثير من علماء الاجتماع والأنثروبولوجيين الأوائل أمثال فان جنب ودوركايم وغيرهم. وقد كرسوا جهودهم لدراستها دراسة وافية أتاحت لنا أطر نظرية نسير في ضوئها في دراساتنا الراهنة. وتكمن أهمية الدراسة أيضًا في تناولها لثلاث مجتمعات مصرية يكتسي كل منهم طابع ثقافي منفرد خاص به استمد أصوله من الثقافة الأصلية له، مما يتيح الفرصة لعقد مقارنة تبرز لنا جوانب التشابه والاختلاف في مراسم وطقوس الوفاة، أملاً أن تساهم الدراسة في إثراء المكتبة العربية بالدراسات المتعلقة بالموت وطقوسه ومراسمه.

(1–2) أهداف الدراسة وتساؤلاتها

تسعى الدراسة إلى تقديم وصف أنثروبولوجي لطقوس ومراسم الوفاة في مجتمعات الدراسة لإبراز أوجه التشابه والاختلاف بين تلك المجتمعات فيما يتعلق بالطقوس التي يمارسونها في حالة الوفاة. ومن هذ المنطلق تسعى الدراسة إلى الاجابة على التساؤلات الآتية:

- ما هي أبرز الطقوس والمراسم المتعلقة بالموت في مجتمع الدراسة.
- ما هي السلوكيات المتوقعة من المحيطين بالمتوفي عقب حدوث الوفاة.
- ماهي الطقوس التي كان يتم ممارستها قديمًا ولكنها اندثرت بفعل عوامل التغير.
- ما مدى مشاركة النساء في الطقوس المتعلقة بالموت بمجتمعي الدراسة (البعد الجندري).
- ما هي القيود التي تفرض على المرأة خلال فترة الحداد على المتوفي.

(2) الإطار النظري والمنهجي للدراسة

(2–1) التوجه النظري

اعتمدت الدراسة الراهنة على **مدخل رؤى العالم** كمنطلق نظري للدراسة، ذلك المدخل الذي يرجع الفضل في بلورته إلى "رد فيلد". حيث قام بتعريف رؤى العالم باعتبارها تصورات عما يجب أن يكون وعما هو كائن، كما أنها تتضمن الطرق والأساليب التي من خلالها تتحد أو تتفرق الخبرات أو أنماط التفكير، فهي بمثابة الجانب المعرفي والوجداني للأشياء الموجودة في العالم.

وتعالج رؤى العالم، وخاصة في مضمونها الديني مشكلة المعنى التي تتعلق بالوجود، ومعنى خبرات الإحباط والفشل والألم التي يختبرها الإنسان في حياته مثل فراق الأهل وموت الأحباب والأصدقاء. وفي هذا الصدد أشار "فيبر" إلى أن رؤى العالم لها تأثير كبير في الحياة الداخلية لفرد، كما أنها تؤثر على علاقته الخارجية بالعالم. فالأشياء والأحداث الفعلية التي تحدث يوميًا تمثل مظاهر ورموز لعالم أخر، فلا يمكن إدراك العالم الخفي إلا من خلال الرموز المشخصة (الأسود، 1993، ص3، 8)

كما اهتم "دوركايم" بدراسة التصورات الدينية، وقد أطلق على نسق الأفكار والرموز التي تدور حول تفسير الطبيعة والكون أسم "التصورات الجمعية" والتي تستهدف تقديم تصور كامل عن العالم، ومركز الأفراد في هذا العالم، والعلاقات الاجتماعية القائمة بينهم والتي يحكمها هذا التصور. ويرى "دوركايم" أن المعتقدات الدينية سواء البسيطة أو المركبة تمثل خاصية واحدة عامة ومشتركة "التصورات الجمعية"، فهي تفترض تصنيفًا للأشياء المثالية والواقعية التي يفكر بها الإنسان، والتي يرى أنها تقسم إلى ما هو مقدس وما هو مدنس (الأسود، 1993، ص5).

وفي ضوء هذا المنطلق النظري سيتم تفسير النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

(2–2) منهجية الدراسة

اعتمدت الدراسة على المنهج الأنثروبولوجي الذي لا غنى عنه في الدراسات الميدانية، وذلك لما يتيحه هذا المنهج من أدوات تمكن الباحث من جمع البيانات المتعلقة بالظاهرة محل الدراسة. وقد تم الاعتماد على أداة المقابلة كأداة رئيسية للحصول على تلك البيانات التي تخدم الدراسة وتجيب على تساؤلاتها التي عقدت من أجلها. حيث تم إجراء العديد من المقابلات مع أفراد مجتمعات الدراسة، بالإضافة إلى إجراء بعض المقابلات الفردية والبؤرية Focus Group Discussion التي تيح الفرصة لجمع أكبر قدر من المعلومات من ناحية وضمان الحصول على البيانات الدقيقة والصحيحة من ناحية أخرى.

وفي هذا الصدد، تم إعداد دليل مقابلة واف يشتمل على كافة العناصر التي يتضمنها طقس الموت بداية من مرحلة الاحتضار وحدوث الوفاة ومرورًا بعملية الغسل والتكفين والدفن وتلقي العزاء، ووصولاً إلى الحداد وما يتضمنه من قيود وضوابط.

(2–3) مجالات الدراسة

- **المجال المكاني**: تم إجراء الدراسة الميدانية بثلاث مجتمعات مصرية، وهي الواحات البحرية، وواحة سيوة، والنوبة المصرية.
- **المجال البشري**: تم تطبيق الدراسة على عينة من سكان المجتمع النوبي مع التركيز على كبار السن والمتقدمين بالعمر حتى يتثنى رصد المراسم المتاحة حاليًا والمندثرة منها.
- **المجال الزمني**: أجريت الدراسة الميدانية خلال العام الميلادي 2021.

(2–4) مفاهيم الدراسة

– **الطقوس**: هي سلوكيات أو ممارسات ثقافية توفر تعبيرًا عن احتواء المشاعر القوية، وتدعم النظام وقت حدوث الفوضى والاضطراب (Huggins, 2019, p 268). وتعرف أيضًا بأنها مجموعة من الإجراءات التي يتم تنفيذها من أجل القيمة الرمزية في ضوء تقاليد المجتمع السائدة (Onu & Solomon, 2019, p2). ويرى راد كليف براون أن الطقوس تعد بمثابة الوسيلة المناسبة للحفاظ على النظام الاجتماعي. فهي بمثابة الأداة التي من خلالها تتجلى المشاعر والميول العاطفية الجماعية لأعضاء الجماعة. وبالتالي، فالطقوس تعد بمثابة أعمال رمزية معبرة عن البنية الاجتماعية (Valeri, 2017, p 51).

ويقصد بالطقوس في متن الدراسة، كافة المراحل والممارسات التي يمر بها المجتمع النوبي أثناء حدوث الوفاة وبعدها، بما تشمله من إعلان الوفاة، وتجهيز المتوفي، وتشييع جثمانه والدفن ووصولاً إلى الحداد والأربعين والسنوية.

– **المعتقدات الدينية**: تعرف المعتقدات الدينية على أنها إما التزام بمجموعة واضحة من الافتراضات، أو أنها التزام غير حرفي أو رمزي أو أخلاقي أو اجتماعي (Mair, 2012, p448). وتعرف أيضًا بكونها المعتقدات المتعلقة بالآلهة والكيانات أو الأحداث الدينية، والتي تقوم على الارتباطات المعرفية بين عدة مفاهيم (الخالق، الوجود، الحقيقة) (Coleman & et al., 2018, p280).

ويقصد بها في متن الدراسة، جملة المعارف الخاصة بالمجتمع النوبي والتي تتعلق بروح المتوفي والطرق التي يمكن اتباعها للتخفيف عن المتوفي.

– **الممارسات الثقافية:** يشير مصطلح "الممارسات الثقافية" إلى أشكال النشاط البشري المحددة ثقافيًا بالشكل الذي يجعلها تمثل جزءًا من الدوائر والشبكات الاجتماعية للمجتمع. كما تعرف بأنها مجموعة من العلاقات الاجتماعية المرتبة في شبكات أو أنماط محددة، وتشكل هذه الأنماط تصرفات الأفراد بطرق بسيطة مثل تحديد ما هو ممكن ومعقول، وما هو "الأفضل" أو "الأسوأ" في موقف معين (Manterys, 2018, p113).

ويقصد بها في متن الدراسة: كافة أشكال الممارسات المحددة ثقافيًا والتي يقوم بها أفراد المجتمع النوبي خلال الأحداث المتعلقة بالوفاة.

(2–5) الأدبيات والدراسات السابقة

بعد الاطلاع على الأدبيات والدراسات السبقة المتعلقة بطقوس الدفن والوفاة تبين لنا ندرة الدراسات العربية المتعلقة بطقوس ومراسم الموت بالنوبة المصرية، وغالبية الدراسات المتاحة لا تتعلق بالمجتمع محل الدراسة، ومن تلك الدراسات التي تم العثور عليها ذات الصلة بمجتمع الدراسة:

- دراسة محمد الجوهري (1975) بعنوان "مظاهر التغير في مجتمع غرب أسوان"، وقد تناول بأحد أجزائها الحديث عن دورة الحياة، وخاصة عادات الموت وما تحمله من مظاهر التضامن الاجتماعي بين أبناء المجتمع والذي يتجلى في المشاركة في تجهيز المتوفي ودفنه. فضلاً عن استعراض الكيفية التي من خلالها يتم الاستعداد للموت والعلامات الدالة على حدوثه وأهم الممارسات التي يقوم بها الأهل عقب حدوث الوفاة.
- دراسة جون كيندي (1999) بعنوان "طقوس الحياة في بلاد النوبة: دراسة في التغير الثقافي". (ترجمة: أحمد عبد الحافظ)، وقد تناول الباحثان بها الحديث عن الملامح العامة لدورة الحياة مع التركيز على شعائر الموت واستعرضا خلالها كافة المراحل التي تمر بها تلك الشعائر بداية بحدوث الوفاة والإعلان عنها وسلوك المحيطين بالمتوفي وقت حدوث الوفاة ومرورًا بكافة المراحل التي يتضمنها طقس الموت، مع استعراض أهم الممارسات التي تتبعها المرأة عقب حدوث الوفاة وأثناء فترة الحداد

- دراسة محمد أبو شنب (2019) بعنوان العناصر الشعبية المرتبطة بعادات دورة الحياة عند النوبيين، وتحدث فيها الكاتب عن العناصر الشعبية المرتبطة بمرحلة الميلاد، الزواج، والوفاة. مستعرضًا عملية الغسل والأدوات المستخدمة بها والكفن ومستلزماته، وتجهيز القبر تشييع الجنازة وعملية الدفن.

بينما فيما يتعلق بالدراسات التي أجريت عن طقوس الموت خارج مجتمع الدراسة، فمنها:

- دراسة منى إبراهيم الفرنواني (1989) بعنوان "التغير الاجتماعي والثقافي في الريف المصري كما تعكسه عادات دورة الحياة"، وقد افردت فيها جزًا للحديث عن عادات الموت وما تتضمنه من استعدادات لحدوثه وطريقة الإعلان عنه، وسلوكيات المحيطين بالمتوفي وكافة المراحل التي يمر بها طقس الموت وصولاً للحداد وما يتبعه من ممارسات وقيود يلتزم بها أسرة المتوفي.
- دراسة مرفت العشماوي (1991) بعنوان "دورة الحياة عند الفرد: دراسة أنثروبولوجية مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية فى مجتمع رشيد"، وتناولت فيها الحديث عن كافة مراحل دورة الحياة، وخصصت جزءًا من دراستها عن العادات والتقاليد المرتبطة بالموت في مجتمع رشيد، متناولة فيه تطبيق عناصر نظرية فان جنيب من حيث الانفصال والتهميش والاندماج. هذا بالإضافة إلى الحديث عن وظيفة العادات والشعائر المرتبطة بالموت، والعادات المرتبطة بزيارة المتوفي.
- دراسة سميح عبد الغفار شعلان (2000) بعنوان "الموت في المأثورات الشعبية، وتناول فيها الحديث عن أهم العادات المتعلقة بحدوث الوفاة والسلوكيات التي يقوم بها أهل المتوفي والمحيطين به بإحدى قرى محافظة المنوفية في ضوء الأبعاد التي حددتها نظرية طقوس العبور لفان جنب، وقد توصل في دراسته إلى أن سلوكيات المحيطين بالمتوفي وأقاربه تتطابق مع الأبعاد التي وضعها فان جنب في نظريته، كما أكد على أهمية الدور الذي تلعبه التنشئة الاجتماعية في الحفاظ على مراسم وطقوس الوفاة والدفن.
- دراسة سنية السيد (2011) بعنوان: ملامح الاستمرار والتغير في عادات دورة الحياة لدى بدو الحضر: عادات الزواج والموت. والتي ركزت على رصد ملامح التغير التي شهدتها عادات الزواج والموت لدى أفراد المجتمع. وقد توصلت إلى أن التحضر الذي شهده المجتمع انعكس على بعض جوانب عادات دورة الحياة وخاصة عادات الموت والزواج وما يرتبط بها من ممارسات وطقوس ومعتقدات، في حين حافظت بعض العادات الأخرى المتعلقة بالموت والزواج على بقائها وعدم

تأثرها بالتحضر. كما أكدت الدراسة على أن الشباب كانوا أكثر الفئات العمرية تأثرًا بملامح التحضر وخاصة الحاصلين على قدر واف من التعليم.

- دراسة سيد فارس (2018) بعنوان "النموذج الثقافي للموت والخلود الرمزي" وقد أكد في دراسته على أن الانفعالات التي يبديها الأفراد تعكس ثقافة الموت السائدة لديهم، كما أن شعائر الموت لديهم مثلت وسيلة رمزية لتوجيه الانفعالات غير المقبولة ومكنتهم من التعامل مع انفعالات الحزن وتجاوز الموت.
- دراسة رضوان زقار وهاجر بن عيسى (2019) بعنوان مكانة الطقوس الجنائزية في سياق الحداد النفسي في منطقة تمنراست، والتي هدفت إلى إظهار الدور الذي تقوم به الطقوس الجنائزية وخاصة الحداد في مواجهة وتجاوز العواقب الوخيمة المصاحبة للموت. وقد توصلت الدراسة إلى أن الحداد يمر بمراحل تهدف في مجملها إلى مساعدة أقارب المتوفي على التكيف مع الوضعية الجديدة للفقدان، حيث يساعد طقس الاعلان عن الوفاة على التقبل المعرفي لوفاة الشخص وتقبل الأمر الواقع، وما يترتب عليه من التقبل الانفعالي للموقف. كما يساهم طقس التعزية على التفريغ الانفعالي للحزن لدى أقارب المتوفي. بينما يعكس طقس الجنازة انطباعًا عن مقام الميت ومكانته.
- دراسة الحسين ريوش (2020). بعنوان: طقوس وعادات الموت في الموروث الشعبي بالمغرب الأقصى، والتي تمثل الغرض منها في إبراز ملامح الطقوس والعادات المرتبطة بالوفاة، وقد توصلت الدراسة إلى أن شعائر الموت في المغرب الأقصى عملت على ترسيخ مظاهر التكافل الاجتماعي وتدعيم الروابط الاجتماعية بين الأسر من ناحية وبين أفراد المجتمع المغربي بصفة عامة من ناحية أخرى. كما أكد الدراسة على أن وجود اختلافات ظاهرة بين البدو وسكان المدن وبين العرب والأمازيغ فيما يتعلق بعادات وشعائر الموت من حيث المستوى الثقافي والممارسة.
- دراسة سعاد محمد خميس (د.ت) بعنوان عادات دورة الحياة في مجتمع المحس: دراسة أنثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية"، وتناولت الباحثة بها الحديث عن كافة عناصر دورة الحياة وتطرقت للحديث عن عادات الموت بداية من حدوث الوفاة ومرورًا بعملية الغسل والتكفين والدفن والجنازة ووصولاً إلى الحداد والقيود المتعلقة به.

وفي ضوء ما سبق استعراضه من دراسات وأدبيات سابقة، تبين لنا أن غالبية تلك الدراسات تستند في تحليلها لعادات وطقوس الموت وما يتعلق به من مراسم وممارسات بنظرية طقوس العبور لفان جنيب،

كما أن الغالبية مننها ارتكزت على الحديث عن الموت بداية من حدوث الوفاة والإعلان عنها ووصولاً إلى الحداد وما يفرضه من ممارسات وقيود على أسرة المتوفي وخاصة النساء. وقد أفادت تلك الدراسات الباحث في التعرف على العديد من الممارسات المختلفة المتعلقة بالموت وسلوك المحيطين بالمتوفي والذي عادة ما يختلف من منطقة لأخرى وفقًا للثقافة السائدة بالمجتمع وتصور أفراده للموت وما يتوجب القيام به مع المتوفي.

(3) نتائج الدراسة

في هذا الصدد، سنقوم باستعراض نتائج الدراسة وفق عناوين أساسية يحمل كل منها أسم الطقس، ويندرج تحت كل منها وصف تفصيلي للطقس بمجتمعات الدراسة الثلاث، مع إبراز أوجه التشابه والاختلاف فيما بينهما.

(3–1) طقس حدوث الوفاة والإعلان عنها

نتيجة للطابع الإسلامي الذي يغلف مجتمع الدراسة، تتمثل المراسم والطقوس التي يقوم بها المحيطين بالمتوفي بمجرد تأكدهم من خروج الروح في القيام بعملية تسبيل العينين، حيث يقوم أحد المحيطين بالمتوفي بوضع أصبعيه الإبهام والسبابة بعد أن يقوم ببلهما بالماء على جفني المتوفي لمدة دقيقة أو دقيقتين حتى يتأكد من إغلاقهما جيدًا. ثم يقومون بعد ذلك بالتربيط، حيث يتم ضم الفك السفلي للمتوفي مع الفك العلوي وربطهما من أسفل الذقن مع الرأس بقطعة من القماش أو الشاش. وبعدها يقومون بعملية التجريد، حيث يتم نزع ثياب المتوفي والتحفظ على ما يحمله من أموال أو متعلقات، وكذلك ما ترتديه المرأة من حلي وتسليمها لأقرب أقارب المتوفي أو المتوفية. وبعد الانتهاء يقومون بوضع المتوفي في اتجاه القبلة، تمهيدًا لقدوم المغسل وإتمام عملية الغسل.

وقديمًا، كان يتم الإعلان عن الوفاة من خلال العويل والنحيب الذي تصدره النساء قريبات المتوفي. بينما في الوقت الحالي، مازال العويل والنحيب مصدرًا للإعلان على الوفاة لإعلام المحيطين بمنزل المتوفي، بالإضافة إلى الاعتماد على الاتصالات الهاتفية، ووسائل التواصل الاجتماعي كوسيلة للإعلان. فعادة ما يتم وضع إعلان الوفاة على صفحات الفيس بوك الخاصة بأقارب المتوفي من الدرجة الأولى وعلى صفحات الجمعيات النوبية التي ينتمي إليها المتوفي، وذلك لكونها أكثر سرعة في الإبلا غ عن حالة الوفاة، فضلاً عن إمكانيتها للوصول إلى جميع الأهل والمعارف بصرف النظر عن البقعة المكانية التي يتواجدون بها.

وفي بعض الحالات يؤجل الإعلان عن حالة الوفاة لتزامنها حدوثها مع انعقاد أحد الأفراح بالمجتمع وخاصة أفراد الأقارب. ففي حالة وفاة أحد الأشخاص كبيري السن المتوقع حدوث وفاته لمرضه، يخفي الأسرة نبأ وفاته لحين الانتهاء من العرس، وبعدها يعلنون عن الواقعة. ولكن لا يحدث ذلك في حالة وفاة الشاب غير المتوقع بوفاته كنتيجة للفاجعة التي تصيب الأهل. وإذا ما حدث وتم الإعلان عن حالة الوفاة، يتوجه أسرة العريس والعروس لأسرة المتوفي لتقديم التعازي واستئذان أسرة المتوفي لاستكمال مراسم الزفاف، وعادة ما تقوم أسرة المتوفي بالتأكيد على أسرة العريس والعروس أن يقومون باستكمال مراسم الزفاف.

أما في حالة حدوث الوفاة، وكان من المقرر انعقاد أحد الأفراح خلال الفترة المقبلة للوفاة، يؤجل الفرح لمدة لا تقل عن شهر لحين انتهاء فترة الحزن على الفقيد، وتقوم أسرة العريس والعروس باستئذان أسرة المتوفي لإقامة عرسهم كنوع من التماسك الاجتماعي والتضامن معهم.

ولا تختلف الطرق المستخدمة في إعلان الوفاة بمجتمع الدراسة باختلاف جنس وعمر المتوفي، ولكن تزداد معدلات العويل والنحيب في حالة وفاة الشباب (الذكور والإناث) مقارنة بوفاة أحد كبار السن بالمجتمع النوبي، كدلالة على الفاجعة التي حلت بهم جراء فقدان الشباب في مقتبل العمر. ويختلف ذلك مع ما يسود ببعض المجتمعات الإفريقية، فلدى شعب "كومبو" بدلتا النيجر، في حالة وفاة رجل كبير السن يتم الإعلان عن الوفاة وبالبكاء والنحيب الشديد والضرب على الصدور، وبين شعب "الإيغبو" بجنوب شرق نيجيريا، يتم الإعلان عن وفاة الرجل المسن بالصراخ المرتفع وإطلاق النيران بالبنادق، بينما لا يحدث ذلك في حالة وفاة أي شخص غير مسن (Shitandi & Barasa, 2020, p7).

وبمجرد حدوث حالة الوفاة والإعلان عنها، يتوجه الأقارب وخاصة النساء إلى منزل المتوفي لمواساة أسرته ويقيمون معهم لمدة ثلاثة أيام حتى يفرغوا من زيارة المقابر باليوم الثالث، وبعدها ينصرفون عائدين إلى منازلهم.

(3–2) طقس تجهيز المتوفي (الغسل والكفن)

يقصد بتجهيز المتوفي، إعداد المتوفي للدفن، ويتم ذلك من خلال عمليات الغسل والتكفين، حيث تنطوي تلك العمليات على العديد من الأمور التي يحرص أقارب المتوفي والمحيطون به على القيام بها، وعادة ما تتطلب تلك العمليات السرعة في الأداء انطلاقًا من رؤى أفراد المجتمع أن "إكرام الميت دفنه". وعادة ما تتسم العلاقات الاجتماعية في هذه المواقف بصفة التضامن والتماسك الاجتماعي (شعلان، 2000، ص121).

وعادة ما يتم تغسيل المتوفى في منزله وخاصة في حالة حدوث الوفاة بالمنزل، ولكن في حالة ما إذا كان مريضًا وتم نقله للمستشفى وحدثت حالة الوفاة بها، يمكن تغسيله في المستشفى ثم يقومون بنقله إلى المنزل استعدادًا للخروج به، أو القيام بنقله من المستشفى إلى المنزل لتتم عملية الغسل بمنزله.

وتتم عملية الغسل فور حدوث حالة الوفاة بمجرد قدوم المغسل أو المغسلة، حتى وأن كانت الوفاة حدثت ليلاً. وفي حالة كون المتوفي رجلاً يقوم بعملية الغسل أحد الأفراد المعروفين بالمجتمع "المغسل" والذي يقوم بذلك ابتغاء مرضاة الله. ويشاركه في ذلك كلاً من أبنائه وإخوانه الذكور ووالده، ويمكن السماح لبعض أصدقاء المتوفي المقربين له بالمشاركة في عملية الغسل. بينما في حالة ما كانت المتوفية امرأة تقوم بعملية الغسل امرأة "مغسلة" ويساعدها بنات المتوفية وأخواتها وأمها ويمكن السماح أيضًا لبعض أصدقاء المتوفية المقربين لها بالمشاركة في عملية الغسل. ولدى الفاديجا، يسمح لبعض الجيران المشاركة في عملية غسل المتوفي.

وقد كان من الشائع قديمًا في عملية الغسل استخدام سرير مصنوع من خشب السنط وجريد النخيل، ومربط بأمعاء الأبل يطلق عليه "الآنجاريه" أو "العنجريب"، وكان يتم وضع المتوفي عليه لتغسيله، ويتم وضع طشت أسفله لجمع مياه الغسل والتخلص منها. ولكن في الوقت الحالي، مازال البعض يستخدم هذا السرير مع إجراء بعض التعديلات الطفيفة عليه كاستبدال أمعاء الأبل التي يتم ربط السرير بها بالأسلاك المعدنية للربط. والغالبية العظمى يستخدمون اللوح المعدني المخصص للغسل والذي يشيع استخدامه في كافة المجتمعات.

وبعد اتمام عملية الغسل، تبدأ عملية التكفين، ويستخدم بها الكفن الشرعي الذي أقره الإسلام دون أي أضافات أخرى، مع استخدام بعض الروائح العطرية كالمسك، الكافور، الصندل وغيرها. كما كان من الشائع قديمًا القيام بتحنية الشعر والجسم بالحناء تأثرًا بالثقافة المصرية القديمة، ولكن في الوقت الحالي لم يتم ذلك كما كان مسبقًا.

ولم ترصد الدراسة وجود أية اختلافات في نوعية الكفن المستخدم وفقًا للمكانة الاجتماعية للمتوفي. فالمجتمع النوبي لا تسوده التفرقة الاجتماعية مهما تفاوتت الطبقات الاجتماعية، ولا يقتصر ذلك على مستوى الوفاة فحسب، بل أيضًا في حالات الزواج والميلاد. بينما هناك اختلاف في الكفن باختلاف الجنس وفقًا لما تقره الشريعة الإسلامية، حيث يكون كفن المرأة أكثر من حيث عدد الأقمشة المستخدمة بحكم ستر المرأة.

وتختلف نتائج دراستنا الراهنة مع النتائج التي توصلت إليها دراسة "سميح شعلان" فيما يتعلق بمدى اختلاف الكفن ومستلزماته باختلاف المكانة الاجتماعية للمتوفي، حيث أكدت دراسته على وجود علاقة ارتباطية بين المكانة الاجتماعية والمادية للمتوفي وبين الكفن المستخدم ويتجلى ذلك الاختلاف في نوعية القماش المستخدم وعدد امتاره وطبقاته والروائح والبخور، حيث يحرص أبناء الطبقة العليا في المجتمع على إظهار احترامهم للمتوفي من خلال اقتناع الأنواع الجيدة من مستلزمات الكفن. بينما في دراستنا الراهنة لم يتم العثور على وجود اختلافات واضحة فيما يتعلق بالكفن المستخدم وفقًا للمكانة الاجتماعية للمتوفي.

(3-3) طقس التشييع والصلاة على المتوفي

يقصد بالتشييع أو الجنازة خروج جثة المتوفي من منزله ووضعه في النعش لتبدأ مراسم الجنازة والصلاة على المتوفي، ويعد هذا التشييع بمثابة الانفصال الأخير للجسد عن المكان الذي عاش به، وعن أهل بيته وخاصة النساء (شعلان، 2000، ص 157).

فبمجرد الانتهاء من تجهيز المتوفي، يقوم المشيعين بالخروج بالجثمان من المنزل متجهين إلى أقرب مسجد أو زاوية للصلاة عليه. ويشارك في عملية حمل النعش كلاً من أبنائه وإخوانه وأصدقائه، ويمكن للجيران هنا المشاركة في عملية حمل النعش في حالة كون المتوفي رجلاً. بينما في حالة كون المتوفي امرأة يقوم بحملها محارمها كأبنائها الذكور وإخوانها وزوجها ووالدها وأبناء إخوانها وأخواتها، ولا يسمح لغير المحارم بحمل النعش اقتداء بتعاليم الإسلام. وعادة ما يتم حمل المتوفي سيرًا على الأقدام دون استخدام أية وسيلة تنقل، وذلك لقرب المسجد والمقابر من محيط السكن بالقرية. ويحرص جميع سكان القرية والمعارف على المشاركة في الجنازة وتشييع المتوفي كدلالة على الترابط الاجتماعي والتساند المتبادل فيما بينهم.

وغالبًا ما تتم الصلاة على المتوفي في المسجد أو في ساحة المقابر دون الارتباط بموعد صلاة من الصلوات الخمس كما يحدث في بعض المجتمعات، ففي حالة حدوث الوفاة ليلاً، يتم فتح المسجد أو الزاوية لإقامة الصلاة على المتوفي.

أما فيما يتعلق بمدى مشاركة النساء في الصلاة على المتوفي من عدمه، تبين لنا أن المرأة في المجتمع النوبي يسمح لها بالمشاركة في الصلاة على المتوفي إذا ما تمت الصلاة عليه في المسجد أو الزاوية، حيث تقوم بذلك في الأماكن المخصصة للنساء، بينما إذا تمت الصلاة على المتوفي في ساحة المقابر لا يسمح لها في هذه الحالة المشاركة في الصلاة، وذلك خشية مما قد يصدر عن المرأة من ممارسات ثقافية متمثلة في اللطم والعويل والنحيب والصراخ والبكاء والذي بدوره قد يضر بالمتوفي وفق معتقداتهم.

(3–4) طقس الدفن

يقصد بالدفن، الستر أو المواراة، وهو المرحلة الأخيرة لانفصال المتوفي عن حياته الأولى والتي تنتهي عندها طقوس الإدماج للمتوفي في حياته الأخرى (فارس، 2009، ص 256). ويعد الدفن بمثابة الخطوة الأخيرة التي تفصل المتوفي عن علاقته بمجتمعه (شعلان، 2000، ص 153).

وعادة ما يتم تجهيز القبر بمجرد حدوث الوفاة والإعلان عنها. وقديما كانت يقوم أقارب المتوفي من الدرجة الأولى بمساعدة الجيران بالتوجه للمقابر لحفر القبر وإعداده لاستقبال المتوفي. ولكن في الوقت الحالي، يقوم أحد أقارب المتوفي فور حدوث الوفاة بالتواصل مع المسؤول عن المقابر وإعلامه بحالة الوفاة، وأخباره بعمر المتوفي وبعض المواصفات الشكلية له كالحجم والطول، وذلك حتى يتثنى له حفر القبر المناسب للمتوفي.

وعادة ما تكون لكل قرية مقابرها الخاصة، وتوجد في نهاية حدود القرية، ويدفن بها أهل القرية فقط. فهناك مقابر خاصة بقرية أبو حنضل، وأخرى خاصة بقرية عنيبة، وغيرها خاصة بقرية إبريم وهكذا بالنسبة لبقية القرى. وغالبية القبور التي يتم حفرها في مجتمع الدراسة تكون مساوية للأرض ولا يوجد لها بنيان مرتفع عن الأرض، بل يتم وضع حجرين فقط على القبر، أحداهما عند رأس المتوفي والأخر عند قدميه. وفي بعض الأحيان يقوم أهل المتوفي ببناء سور مرتفع قليلاً حول القبر لإحاطته حتى لا يخطو عليه أحد.

ومن المعتاد في المجتمع النوبي أن تتم عملية الدفن في نفس اليوم الذي وقعت به حادثة الوفاة، حتى وأن حدث ذلك ليلاً. ولكن في بعض الآحيان يتم تأجيل عملية الدفن لليوم التالي، وذلك لبعض الاعتبارات كانتظار وصول أحد أقاربه غير المتواجدين بالمجتمع وخاصة الأقارب المباشرين كالأبناء أو الوالدين. أو في حالة حدوث الوفاة في وقت متأخر من الليل، حيث يفضل الأهل إبقاء الجثمان لليوم التالي صباحًا ثم يقومون بدفنه، وذلك حتى يتثنى لهم الحصول على تصريح الدفن من ناحية، والخوف من الدهس عن غير عمد على أحد القبور من ناحية أخرى.

وبمجرد وصول الجثمان للمقابر يبدأ الأقارب المباشرون والمشيعين عمومًا بالتسابق على حمل المتوفي لإنزاله للقبر، وذلك في حالة ما كان المتوفي رجلاً، ولكن في حالة ما كان المتوفي امرأة يقوم بذلك محارمها كما سبق وأشرنا. ويقوم بعد ذلك أحد الأفراد المعروف عنهم التقرب إلى الله بالدعاء للمتوفي، ويقوم المشيعين بالتأمين على ما يدعو به أملين من الله أن يغفر للمتوفي.

ومن الممارسات التي يقوم بها المجتمع النوبي منذ قديم الأزل، ممارسة وضع الحنة على قبر المتوفي، وهي عادة مصرية قديمة توارثوها من الفراعنة، حيث يتم وضع الحنة على الأصابع والقيام برسم أربع أو خمس علامات بأصابع اليد على قبر المتوفي عقب الانتهاء من دفنه. ولهذه الممارسة دلالة ومغزى متمثل في الاعتقاد بأن الحنة تساعد على تخفيف العذاب على المتوفي وتعطر قبره.

وفيما يتعلق بمدى مشاركة النساء في عملية التشييع والدفن، تبين لنا أن المجتمع النوبي لا يسمح للنساء باتباع الجنائز خشية قيامهن بالممارسات الثقافية المعتادة كالعويل والنحيب واللطم، تلك الممارسات التي يعتقدون أنها تضر بالمتوفي. ولكن هناك بعض الحالات التي قد يسمح بها للمرأة باتباع الجنائز، وذلك في حال ما كان المتوفي زوجها أو أحد أبنائها أو بناتها، ويتوقف ذلك على مدى قبول العائلة لذلك من عدمه، فالغالبية من المجتمع النوبي تسعى لتطبيق الشريعة الإسلامية التي تقر عدم خروج المرأة خلال فترة العدة إلا للضرورة القصوى فقط، وذلك في حالة ما إذا كان المتوفي زوجها وفي هذه الحالة تتبع المرأة الجنازة ولكنها تبقى منتظرة عند مدخل المقابر ولا تصل إلى القبر. بينما لا يسمح لها باتباع الجنائز في حالة ما إذا كان المتوفي والدها أو أحد إخوانها أو أخواتها.

أما فيما يتعلق بمدى اختلاف شكل المقابر باختلاف المكانة الاجتماعية والجنس، فلم ترصد الدراسة أية اختلافات في شكل المقابر قائمة على اختلاف المكانة الاجتماعية والجنس، فالمقابر جميعها ذات نفس النمط من التصميم مهما اختلفت المكانة الاجتماعية للمتوفي وأسرته، ومهما كان المتوفي رجلاً أو امرأة. بينما تختلف المقابر حسب العمر وبعض المواصفات الشكلية للمتوفي كما سبق وأشرنا، وذلك لأن المقابر يتم حفرها لكل فرد خصيصًا، ولا يتم دفن متوفي مع الآخر كما هو شائع في المدن الحضرية. ومن الجدير بالذكر، أن الأطفال المتوفيين لا يتم حفر قبر لهم، بل يتم دفنهم مع أحد المتوفيين، وعادة ما يحرص أهل المتوفي على دفن الطفل مع فقيدهم، اعتقادًا منهم بأن دفن الطفل معه سيخفف عنه وحشة القبر ويؤنسه، ويصبح شفيعًا له.

(3–4) طقس تلقي العزاء

يقصد بالعزاء الصبر، والتعزية يراد بها التصبير والحمل على الصبر بذكر ما يخفف حزن المتوفي ويهون عليه مصيبته. وينبع حرص الجماعة على أداء واجب التعزية لأغراض مختلفة منها ما هو مرتبط بالباعث الديني الذي تحث عليه السنة النبوية، ومنها ما هو مرتبط بالباعث الاجتماعي المتمثل في المشاركة الجماعية وتحقيق التضامن والتماسك الاجتماعي (شعلان، 2000، ص 179). وعلى الرغم من أن مراسم العزاء

تختلف من ثقافة إلى أخرى داخل المجتمع المصري، إلا أنها تتفق جميعها في الغرض الأساسي منها، والذي يتمثل في الاتحاد والمشاركة بين أعضاء الجماعة الواحدة لتحقيق التماسك الاجتماعي (فارس، 2009، ص278).

وعقب الانتهاء من عملية الدفن، يصطف الأقارب المباشرين للمتوفي، كوالديه وإخوانه وأبناءه عند مدخل المقابر وذلك لتلقي العزاء من المشيعين، وفور الانتهاء من ذلك يعودون إلى منزل المتوفي للاستعداد لاستقبال العزاء. ومن الجدير بالذكر، أن المجتمع النوبي لا يقيم سرادق لاستقبال المعزيين، بل يتم تلقي العزاء من الرجال بالمندرة أو المضيفة الملحقة بالمنزل أو بالساحة أمام المنزل، وفي بعض الأحيان يتم تلقي العزاء بأحد الجمعيات النوبية التي كان ينتمي إليها المتوفي. بينما يتم تلقي العزاء من النساء داخل منزل المتوفي. ويستمر تلقي العزاء على مدار اليوم دون تحديد توقيت معين كما يحدث في بعض المجتمعات التي تحدد تلقي العزاء خلال الفترة من المغرب حتى عقب العشاء.

ومن الجدير بالذكر، أن المجتمع النوبي يسوده اعتقاد بأن روح المتوفي تظل ببيته طوال فترة الأربعين يومًا الأولى من حدوث الوفاة، لذلك يحرص البعض من أقارب المتوفي على عدم قيام أي أحد من المعزيات بالعويل والعديد والنحيب الشديد، اعتقادًا منهم بأن ذلك يؤذي المتوفي. ولكن ذلك لا يحدث لدى كافة الأسر.

أما فيما يتعلق بالفترة التي يستغرقها تلقي العزاء، فقد تبين لنا أن تلقي العزاء يستمر لمدة ثلاثة أيام من حدوث الوفاة، وقد تطول هذه المدة لتصل إلى ما يتجاوز العام من حدوث الوفاة، حيث يتم تلقي العزاء من الأقارب والمعارف المغتربين عن المجتمع، والذين يحرصون على تقديم واجب العزاء بمجرد وصولهم لمجتمعهم الأصلي.

وبالحديث عن مدى تقديم الطعام للقادمين للعزاء، تبين لنا أن المجتمع النوبي يحرص على تقديم الطعام للمعزيين فور وصولهم لتقديم التعازي. حيث تقوم أسرة المتوفي بمشاركة الجيران بإعداد الطعام لتقديمه للقادمين للتعزية. وفي بعض الحالات يقوم الجيران بمفردهم بإعداد وتجهيز الطعام نظرًا لانشغال أسرة المتوفي بمصابهم.

وقديمًا كان يتم تقديم الفشار والبلح للمعزيين بمجرد وصولهم عقب، كما كان يتم تقديم "الكابيدة بالعسل" للأطفال وكان يتم وضعها عند مدخل العزاء ليسهل على الأطفال الحصول عليها وتناولها. ويتمثل الطعام الذي يتم تقديمه في؛

- **الفتة باللحم:** وهي الطعام الأساسي الذي يتم تقديمه، وهي عبارة عن خليط من الأرز والعيش المحمص واللحم المسلوق.
- **الإتر:** وهو خليط من الملوخية والشبت والكزبرة والطماطم وبيكربونات الصوديوم يتم خلطهم جيدًا بالمفراك النوبى حتى يندمجوا معًا ويصبحوا في حالة سائلة لزجه ويتم وضعها على النار حتى تمام الطهي.
- **الويكا:** وهي بامية مجففة يتم تسويتها على النار باستخدام المفراك النوبي دون إضافة الطماطم إليها. ويضاف إليها اللحم المفروم.
- **الكابد "الكابيدة":** وهو عجين من الدقيق والماء والملح وبيكربونات الصوديوم يتم عجنهما وتسويتهما بعد فردهما. ويستخدم كبديل للخبز مع الإتر والويكا.
- **العدس:** سواء العدس الأصفر المقشر أو العدس غير المقشر "أبو جبه"، ويتم طهيه بالطريقة المألوفة والمعتادة بالمجتمع المصري.

وعادة ما يتم ذبح أحد رؤوس الماشية لاستخدام لحومها في إعداد الطعام الذي يتم تقديمه، والتي تتراوح ما بين العجل وذلك بالنسبة للمقتدرين، أو خروف لغير المقتدرين. وعادة ما يتكفل الرجال بإعداد الطعام للقادمين للعزاء، حيث يتوافر بالجمعية النوبية كافة الأدوات التي يحتاجون إليها للطهي وتقديم الطعام. بينما تقوم النساء بإعداد الطعام الذي يتم تقديمه للقادمات للتعزية من النساء.

ويقوم بتقديم الطعام للقادمين للتعزية من الرجال أقارب المتوفي وخاصة الشباب، في حين تقوم قريبات المتوفي بتقديم الطعام للقادمات من النساء. ويحرص النوبيين على تقديم تلك الأطعمة في المناسبات، وخاصة في حالة الوفاة تمسكًا بالعادات والتقاليد. ومن الجدير بالذكر، أن لدى قبيلة الكنوز، يتم تقديم الفاكهة المحببة للمتوفي للقادمين للعزاء في اليوم الثالث من أيام تلقي العزاء، كنوع من أنواع تخليد الذكرى وإطعام القادمين مما كان يشتهي المتوفي. وما زال هذا الطقس مستمرًا حتى بين أواسط النوبيين الذين يقيمون خارج نطاق الوطن الأصلي.

أما فيما يتعلق بالمشروبات التي يتم تقديمها للقادمين للعزاء فهو الشاي المركز السداة، والممزوج بالحليب، والقهوة، ويتم تقديمهم قبل تناول الطعام وبعده.

ولم ترصد الدراسة أية اختلافات في مراسم التعزية في مجتمع الدراسة وفقًا لمتغيرات النوع والمكانة الاجتماعية، حيث تتشابه المراسم مهما اختلف جنس ومكانة المتوفي الاجتماعية، بينما توجد اختلافات فيما يتعلق بالعمر، حيث لا يتم إجراء مراسم التعزية السالف الإشارة إليها في حالة ما كان المتوفي طفلاً.

(3–5) طقس زيارة القبور

تعد زيارة القبور بمثابة الجسر الواصل بين الأحياء وموتاهم، فبعد انقطاع الصلة الحسية مع المتوفي تنشأ الرغبة في إيجاد روابط مادية تصنع بدورها جسرًا رمزيًا يصلهم بالموتى، وهذا الجسر يتمثل في مجموعة من الممارسات والطقوس الدالة على ولاء هؤلاء الأحياء تجاه المتوفي والتي بدورها تحد من لوعة الفقد(فارس، 2009، ص 277).

لذلك تعد زيارة القبور من أهم المراسم التي يحرص أهل المتوفي على أدائها بعد وفاته، فهي تمثل مظهرًا من مظاهر الاحتفالات والطقوس الجنائزية التي لا تنتهي بانتهاء مراسم الدفن، بل تمتد لعدة سنوات حسب درجة حرص أهل المتوفي على الاستمرارية والمداومة على أدائها (شعلان، 2000، ص 203).

ويحرص المجتمع النوبي على زيارة القبور، باعتبارها الجسر الرمزي الذي يربط بينهم وبين المتوفي. حيث يحاط طقس زيارة القبور ببعض الممارسات التي يحرص على أدائها المجتمع النوبي. فنجد الرجال يحرصون عند زيارتهم القبور بجمع عدد من الحصى صغير الحجم بعدد التسبيحات والذكر الذي سيقومون به أمام القبر، ويقومون بإلقاء حجر مع كل تسبيحة أو ذكر على قبر المتوفي. ويطلق على ذلك الحصى "الحصى المقدس" كنتيجة لارتباطه بالتسبيح المقترن به. ويمارس هذا الطقس باعتباره أحد العوامل التي من شأنها التخفيف من ذنوب المتوفي ورفع درجته في الجنة. وللحصى المقدس الذي يتم إلقائه على قبر المتوفي استخدام أخر لدى النساء، ففي حالة "المشاهرة أو الكبسة" وبالتحديد تأخر الانجاب، تقوم النساء كبيرات السن بنصح النساء في مقتبل العمر واللاتي تأخر حملهن بالذهاب إلى المقابر بعد عصر يوم الخميس وجمع سبع حصوات من الحصى المقدس، وبمجرد العودة إلى المنزل يقمن بوضعها في أناء به ماء وتترك في ساحة المنزل غير المسقوفة حتى قبيل موعد صلاة الجمعة. وتقوم المرأة المشاهرة باستخدام الماء المنقوع به الحصى المقدس للاستحمام، وذلك اعتقادًا منهن بأن الحصى المقدس وما يحمله من بركة سيقوم بإزالة المشاهرة التي حلت بالمرأة ويمكنها من الانجاب.

وفيما يتعلق بمدى السماح للنساء بزيارة القبور، تبين لنا أن المجتمع النوبي يسمح للنساء بزيارة القبور ولكن في حالات محددة متمثلة فيما إذا كان المتوفي المراد زيارته هو الزوج أو الأب أو أحد الأبناء

فقط، ولكن لا يسمح لها بزيارة أي متوفي أخر. وفي بعض الحالات النادرة يسمح للمرأة بزيارة القبور في حالة ما إذا كان المتوفي لا يمت لها بصلة قرابة كنوع من أنواع الدعم والمساندة لجيرانها أو معارفها من النساء في حالة وفاة أزواجهن أو أحد أبنائهن، ويتم ذلك في اليوم الثالث من الوفاة، حيث يصطحب الرجال من أهل المتوفي نسائهم للذهاب إلى المقابر حتى يتثنى للنساء معرفة مقبرة فقيدهم. وتكرر تلك الزيارة في الأربعين والأعياد.

وتحرص النساء أيضًا على زيارة القبور كل يوم جمعة عقب صلاة العصر، حيث يتوجهن إلى المقابر حاملين معهن المصاحف لقراءة القرآن على روح المتوفي، وبعض النباتات كالصبار وزعف النخيل لزرعها ووضعها عند قبر المتوفي، بالإضافة إلى المياه لري النباتات وملئ الأواني الفخارية الصغيرة المخصصة لري الطيور، وبعض الحبوب كالقمح لإطعام تلك الطيور. فعادة ما يتم وضع أربعة أواني فخارية صغيرة على قبر المتوفي ويخصص اثنان منها لوضع المياه وأثنان لوضع الحبوب لإطعام الطيور، وذلك اعتقادًا منهن بأن إطعام الطير سيخفف من ذنوب المتوفي ويشفع له عند الله، وباعتبار ذلك أحد أنواع الصدقات التي يمكن تقديمها على روح المتوفي.

(3–6) طقس الحداد

يقصد بالحداد، الفترة الزمنية الاستثنائية الفاصلة بين حادثة الوفاة وبين معاودة أهل المتوفي الاتصال الطبيعي بالآخرين (فارس، 2009، ص 314). ويستخدم مصطلح الحداد للإشارة إلى الاستعراض والإظهار الثقافي العام للحزن من خلال سلوكيات الفرد، ويعرف بأنه مجموعة من الشعائر والسلوكيات التي يقرها تقليد ثقافة معينة، حيث يرتبط الحداد بشعائر معينة وعلامات ظاهرية كارتداء الملابس السوداء، فالحداد دائمًا ما يتأثر بالسياق السوسيوثقافي للمجتمع (فارس، 2018، ص 66، 67).

وتعد طقوس الحداد من أهم الممارسات التي يقوم أهل المتوفي بها للتعبير عن مدى ألمهم وحزنهم الناجم عن فقد المتوفي (شعلان، 2000، ص325). وفي هذا الصدد، أشار دوركايم إلى أن الحزن الفردي الذي يثيره موت شخص ما يتم التعبير عنه بشكل جمعي من خلال أساليب الحداد المحددة ثقافيًا ذات الصلة بالنحيب والندب والعويل والبكاء. فالحداد من وجهة نظره لا يمثل انفعالاً تلقائيًا؛ بل هو التزام جمعي يظهر في مشاعر التهدئة، حيث أن موت شخص ما ينقص من الجماعة عدديًا واجتماعيًا، وبالتالي فإن اللامبالاة تجاه موت هذا الشخص يدل على قصور في الوحدة الأخلاقية والثقافية، وغياب التماسك

والتضامن الاجتماعي، وذلك من منطلق أن الحداد الجمعي يساهم في تحقيق التقارب والتلاحم بين الأفراد والجماعة ككل(فارس، 2018، ص 30).

وتكمن أهمية الحداد في تمكينه للأفراد من التوافق مع الخسارة والفقد، فهو يساهم في فك الروابط الاجتماعية والنفسية التي كانت تربط الأفراد بالشخص المتوفي أثناء حياته، وتمكنهم من تكوين روابط جديدة، كما يساهم أيضًا في التكيف مع الخسارة والفقد، وتعلم كيفية الحياة في المجتمع من دون المتوفي(فارس، 2018، ص 68). فضلاً عن وظيفة الانتقال والضبط التي يمنحها الحداد لأقارب المتوفي، فهو يمكنهم من تجنب الاضطراب الاجتماعي الناجم عن الموت والاضطراب العاطفي الذي يعيشونه (عبد الله، 2019، ص 159).

وعادة ما يتضمن الحداد بعض الشعائر والقيود على أهل المتوفي وخاصة أقاربه من الدرجة الأولى، وتتمثل تلك القيود في القيود المتعلقة بالطعام كعدم تناول بعض الأطعمة خلال فترة الحداد، وقيود متعلقة بالملبس كارتداء الملابس السوداء والداكنة، وقيود تتعلق بالمظهر كعدم التزين والتجمل وتكحيل الأعين خلال تلك الفترة، وأخرى تتعلق بالعلاقات الجنسية كتجنب حدوث الجماع خلال فترة الحداد (شعلان، 2000، ص326). وفي بعض المجتمعات الإفريقية كمجتمع "أماكسوسا" بجنوب إفريقيا يقوم الأقارب المباشرين للمتوفي ببعض الممارسات أثناء فترة الحداد منها؛ حلق الشعر كرمز للانفصال من ناحية، والاعتقاد باستمرارية الحياة من ناحية أخرى لأن الشعر سوف ينمو مجددًا وبالتالي، فالحياة لا تتوقف بحدوث موت الشخص. كما يقومون أيضًا بوضع الطين على أجسادهم كرمزية للحزن، ويتجنبون العلاقات الجنسية مع شركائهم لمدة تصل إلى عدة أسابيع أو أشهر كعلامة على الحداد واحترامًا للمتوفي. ويقوم البعض منهم بتكسير الأواني الفخارية وهجر الأكواخ التي كان يسكنها المتوفي كإشارة إلى أن المكان لا يحيا إلا بوجوده. كما تحرص النساء على ارتداء الملابس الفضفاضة الواسعة والحجاب الذي يغطي صدورهن لمدة تتراوح من أسبوعين إلى ثلاث أسابيع. وتعد هذه الممارسات بمثابة آلية للتعامل مع حالة الحزن والألم والاضطراب الناجم عن الموت (Solomon, 1986, p7).

وفي المجتمع النوبي، لوحظ أن طقوس الحداد وما يتخللها من حزن تختلف باختلاف الجنس، حيث تزداد وطأة وشدة تلك الطقوس لدى النساء مقارنة بالرجال الذين يستمر الحداد لديهم خلال فترة الثلاث أيام التي يتلقون بها العزاء، ويعودون لممارسة حياتهم الطبيعية بعد تلك الفترة. بينما تطول فترة الحداد لدى النساء وتتجلى ملامح الحزن عليهم بشكل أوضح مقارنة بالرجال وخاصة في حالة وفاة الزوج أو الأبن

كدلالة رمزية على الخسارة الفادحة التي اصابتها. ففي حالة وفاة الأبن الشاب يزداد الحزن مقارنة بوفاة كبير السن أو الطفل الرضيع، وذلك لعدة اعتبارات، وهي أن كبير السن يكون من المتوقع حدوث وفاته كنتيجة لمرضه، كما أن الطفل الرضيع لم يتحقق التواصل والترابط الفعلي الكافي بينه وبين أسرته لتزداد حالة الحزن علية، مقارنة بالشاب الذي يتوفى وهو في مقتبل العمر وخاصة ما إذا كان مقبلاً على الزواج، أو متزوجًا ولديه أطفال صغيري السن، وكذلك الحال بالنسبة للنساء صغيرات السن.

وقد رصدت الدراسة أن ملامح الحداد لدى المرأة تتمثل في ارتدائها الملابس السوداء طوال فترة العزاء والحداد كرمز للحزن والحسرة على فقدانهم للمتوفي. حيث تستمر فترة الحداد في حالة وفاة والدها إلى ما يتجاوز العام. بينما في حالة وفاة الزوج أو الأبن ترتدي المرأة الملابس السوداء مدى الحياة ولا تقوم بخلعها حتى وفاتها. كما لا تقوم بارتداء مصوغاتها الذهبية بعد وفاته لاعتقادهم بأن الذهب رمز للفرح ومظهر من مظاهر التجمل والزينة، وأن حدث وقامت بارتدائه تتعرض إلى اللوم من قبل الأسرة والمحيطين. ومن القيود المفروضة على المرأة خلال فترة الحداد، تلك المتمثلة في عدم لخروج منزلها وعدم استقبال العزاء من الرجال طيلة فترة العدة. وتجدر الإشارة هنا إلى أن المرأة التي يتوفى زوجها لن يسمح لها بالزواج مجددًا، باستثناء ما إذا كانت في مقتبل العمر بشرط الا يكون لديها أطفال من زوجها المتوفي. وعادة ما يتزوجها أحد أخوة زوجها المتوفي، أو أحد الأفراد من الجماعة القرابية من المطلقين أو الأرامل أو المتقدم بالعمر. وفي حالات نادرة ما يتم زواج الأرملة التي لديها أطفال، ولكنه أمرًا غير شائع الحدوث.

ومن الملامح الأخرى لطقس الحداد، قيام المرأة التي توفي زوج بالنوم على الأرض وعدم النوم على سرير الزوجية طوال فترة العدة والحداد كرمز للحزن الشديد على مفارقة الزوج، كما تقوم بتغيير فراش السرير في اليوم الثالث من الوفاة وفي يوم الأربعين.

ومن الجدير بالذكر، أن طقوس الحداد تكاد تكون أكثر زخرًا لدى نساء الكنوز مقارنة بنساء الفاديجا. حيث تميل نساء الكنوز إلى التعبير عن حزنهم بالعديد من الطقوس الجسدية كالعديد والعويل، والقيام بتلطيخ الوجه والرأس بالتراب، والذهاب إلى النيل ووضع الطمي على وجهها ورأسها كرمز لقبر الذات واظهار الحزن والتمني أن يأويها التراب بدلًا من الشخص المتوفى. وقديمًا كانت تذهب المرأة إلى النيل كي يرى جميع أهل المجتمع مدى حزنها على المتوفى، وتقوم بالذهاب والإياب مرارًا وتكرارًا وهى ملطخه بالتراب. كما تقوم النساء بشد خصرهن بقطعة أو حزام من القماش أو الحبال، وتقوم بتحريك جسدها يمينًا ويسارًا كتعبير عن انكسار ظهرها بعد وفاة الشخص المقرب. وتكمن الفكرة في ربط الخصر

في محاولة انتصاب الظهر حتى تتمكن من الوقوف مجددًا والاستمرار في مواكبة الحياة التي غلفها الحزن بعد وفاته. وتقوم بتلك الحركات الادائية الزوجة أو الأخت أو الأم حسب قربتها للمتوفي بشكل منفرد أو في شكل جماعي بمشاركة العديد من النساء سواء من الأقارب أو الجيران، ويقومن بتحريك رؤوسهن للأعلى والأسفل. ويقتصر قيام المرأة بتلك الحركات في حالة وفاة الزوج أو الأبن أو الأب.

ومن ملامح الحداد الأخرى التي رصدتها الدراسة بالمجتمع النوبي، عدم تقديم الحلوى وتناولها في منزل المتوفي لمدة تصل إلى عام، وذلك لاعتبار تقديمها أو تناولها يمثل مظهرًا من مظاهر الفرح الذي لا يتماشى مع طبيعة الحزن الذي يخيم على أسرة المتوفي.

(3-7) طقسي الأربعين والسنوية

يعد طقسي الأربعين والسنوية بمثابة إحياء لذكرى المتوفي، وتأكيدًا من أسرته على استمرار بقائه في ذاكرتهم. ويحرص المجتمع النوبي في ذلك الطقسين على زيارة القبور، حيث يقتصر القيام بذلك الطقس على أقارب المتوفي من الدرجة الأولى فقط. حيث توجه أقارب المتوفي للقبور مصطحبين معهم بعض الأطعمة والمخبوزات كالقرص والفشار، بالإضافة إلى الفاكهة والبلح والتي يتم وضعها في أكياس لتوزيعها كصدقة على روح المتوفي، وفي بعض الآحيان يقومون بتوزيع الفتة واللحم. وقديماً كان يتم توزيع البلح والفشار وبعض المأكولات الأخرى على روح المتوفي كالأولبد، وهو خليط من الدقيق والذرة الشامية يتم عجنهم سويًا ويضاف إليهم الخميرة، والشيلد، وهو يصنع من الدقيق المخلوط بالعجوة، بالإضافة إلى الفنتي، وهي خليط من أوراق اللوبيا والبسلة التي يتم سلقهم ويضاف إليهم طحين العطرون.

كما يحرصون على وضع الحبوب والمياه كما سبق وأشرنا باعتبار الحبوب والمياه صدقة جارية على روح المتوفي أيضًا. ويقومون باستبدال زعف النخيل الذي تم وضعه مسبقًا بأخر جديد. كما يقومون بقراءة القرآن على روح المتوفي والدعاء له. بينما يحرص البعض في هذين الطقسين على توزيع المصاحف كصدقة جارية على روح المتوفي.

(4) مناقشة النتائج

تعد طقوس ومراسم الموت أحد السمات المميزة لكل ثقافة، وعادة ما تعبر عن الخصوصية الثقافية للمجتمع، والتي تميزه عن غيره في بعض الأمور، حتى وأن تشابهت بعض الملامح الثقافية، تبقى الأخرى كسمة مميزة للثقافة.

في ضوء ما سبق الإشارة إليه بخصوص طقوس وممارسات الموت بالمجتمع النوبي، يتضح لنا أن **المجتمع النوبي يذخر بالعديد من الممارسات والطقوس المتعلقة بالموت** والتي تغلفها الشريعة الإسلامية في العديد من جوانبها من ناحية، والتأثر بالحضارة المصرية القديمة في بعض الجوانب من الناحية الأخرى. ويتجلى مظاهر التأثر بالشريعة الإسلامية في طقس تجهيز المتوفي والصلاة على المتوفي والدفن، وفترة العدة التي يتوجب على المرأة الالتزام بها، والتصدق على روح المتوفي. بينما يتجلى التأثر بالحضارة المصرية القديمة في استخدام الحناء وقت التكفين وعقب الدفن.

وبالنظر **لمراسم الدفن والوفاة في المجتمع النوبي، لنجدها تتسم بالبساطة في الأداء** وعدم المغالاة في التفاخر بالنفقات الباهظة التي يتم انفاقها على المراسم ببعض المجتمعات الأخرى. وخاصة فيما يتعلق بمراسم الجنازة. وهذا يختلف مع العديد من الدراسات التي أجريت عن بعض المجتمعات الفريقة. فعلى سبيل الذكر وليس الحصر، أشار "فان دير" في دراسته بمجتمع كواهو بغانا، إلى أن الجنازات لدى أفراد مجتمع كواهو تعد مناسبة لإظهار هيبة وتفوق ومكانة أسرة المتوفي، وأن الجنازات السيئة تمثل وصمة عار على أسرة المتوفي. كما أشار "كروكشانك" في دراسته لمجتمع أكان إلى أن أفراد ذلك المجتمع يحرصون على تقديم عرضًا رائعًا لجنازاتهم ويتنافسون فيما بينهم في أداء ذلك العرض باهظ التكلفة، حتى أن الفقراء يرهنون ويستعبدون أنفسهم مقابل الحصول على وسائل الدفن اللائقة بموتاهم (Van der, 2000, p106). وكذلك الحال لدى سكان "لجبولاند" بجنوب نيجيريا، حيث نجدهم ينفقون ما يفوق متوسط دخلهم لتلبية احتياجات ومتطلبات إجراء طقوس ومراسم الوفاة لوالديهم، وذلك لتجنب غضب الأسلاف الذين يشعرون بالإهانة في حالة التهاون في القيام بالطقوس بالشكل الأمثل واللائق بوالديهم (Onu & Solomon, 2019, p1).

أما فيما يتعلق **بمدى اختلاف طقوس ومراسم الموت باختلاف عمر وجنس المتوفي ومكانته الاجتماعية**، تبين لنا أن تلك المراسم والطقوس لا تختلف اختلافًا جوهريًا باختلاف الجنس أو العمر أو المكانة الاجتماعية للمتوفي، باستثناء بعض الأمور المتعلقة بالعمر كدفن الطفل الرضيع مع أي متوفي دون فتح قبر خصيصًا له. في حين قد تختلف تلك المراسم باختلاف العمر والجنس في بعض المجتمعات الأخرى. فلدى شعب "الإيغبو" نجد أن طقوس الموت تختلف باختلاف العمر والجنس والمكانة الاجتماعية للمتوفي، فالمراسم الجنائزية للرئيس أو الزعيم تكون أكثر تفصيلاً واهتمامًا كنتيجة لمكانته الاجتماعية مقارنة بأفراد المجتمع الآخرين، كما أن الطفل الرضيع يتم دفنه بالمراسم الطبيعية ولكن في حالة وفاة الأطفال

اللاحقون له من نفس الأم لا يتم دفنهم، ولكن يتم إلقائهم في الغابة. كما يتم دفن المراهق خارج محيط المجتمع كعلامة على الوفاة المبكرة ولا يحظى بإجراء المراسم والطقوس الجنائزية المتقنة لاعتبار أن وفاته في سن مبكر تعد انحراف عن نظام الطبيعة. وأيضًا الشخص الذي لم يبلي بلاء حسن في المجتمع ولم يترك لأولاده الثروة والممتلكات لا يتم إتقان المراسم الجنائزية له كعلامة على فشله في تحقيق ذلك. وهناك بعض الحالات التي لا يتم إقامة مراسم الجنازة لهم، كالنساء اللاتي توفين أثناء الولادة، والأطفال الذين يتوفون قبل نمو أسنانهم، والأشخاص الذين ينتحرون في شهر مقدس، ويتم إلقائهم في الغابة التي تحوي الأرواح الشريرة (Onu & Solomon, 2019, p5). وكذلك الحال لدى شعب "لوه"، نجد أن هناك اختلافات في طقوس الموت وفقًا لاعتبارات العمر والجنس والمكانة الاجتماعية، ففي حالة وفاة رجل مسن يتم تنفيذ جميع طقوس الموت التي يبلغ عددها أربعة عشر طقسًا، بينما يتم استثناء بعض هذه الطقوس وفقًا للعمر والجنس والحالة الاجتماعية للمتوفي (Shitandi & Barasa, 2020, p8) .

وبالنظر لمدى **مشاركة المرأة في مراسم وطقوس الموت**، لنجد أن المرأة يسمح لها بالمشاركة في الصلاة على المتوفي، كما يسمح لها بزيارة القبور في اليوم الثالث من الوفاة، بينما لا يسمح لها بحضور تشييع المتوفي وعملية الدفن إلا في بعض الحالات المحددة ثقافيًا كما سبق وأشرنا، وذلك تفاديًا لما قد يصدر عنها من أفعال تلقائية يعتقد أنها تضر بالمتوفي. فالأمر هنا محاط بالقيود الدينية من ناحية ولمعتقدات الثقافية من ناحية أخرى.

وفيما يتعلق **بالحداد**، يجدر بنا الإشارة هنا إلى أن النساء أكثر التزامًا بالحداد مقارنة بالرجال، فحداد الرجل عادة ما ينتهي عقب انتهاء الثلاث أيام التالية لحدوث الوفاة، بينما يستمر حداد المرأة لعدة شهور وسنوات وأحيانًا مدى الحياة وذلك حسب درجة القرابة للمتوفي. كما أن إظهار الحزن يكون بدرجة أعلى وأكثر وضوحًا لدى النساء مقارنة بالرجال، وقد يعزو ذلك إلى الطبيعة البيولوجية التكوينية للمرأة باعتبارها أقل تحملاً من الرجل وأكثر تأثرًا منه بالمواقف

وقد تبين لنا أن هناك بعض **الممارسات الثقافية التي تقوم بها المرأة خلال فترة الحداد**، كربط الخصر برباط أو قطعة قماش، اللطم كنتاج للفاجعة التي حلت بها، وتلطيخ الجسد بالطين لدى بعض الجماعات النوبية، وغيرها من الممارسات التي أفرزتها الثقافة النوبية وتحلى بها أهلها كنوع من الالتزام الواجب القيام به في مثل تلك المواقف.

كما تجلى لنا أيضًا أن هناك بعض **القيود الثقافية التي يتوجب على المرأة الالتزام بها خلال فترة الحداد،** كالبقاء بالمنزل وعدم الالتقاء بالرجال، وعدم النوم على فراش الزوجية لحين انتهاء فترة العدة الشرعية، فضلاً عن عدم ارتداء الحلي المصنوع من الذهب خلال فترة الحداد أو مدى الحياة في حالة وفاة الزوج لاعتباره مظهر من مظاهر الفرح والتجمل، وغيرها من القيود. فالحداد لدى المجتمع النوبي يعد بمثابة الالتزام للتعبير عن مدى الاتصال واستمرارية التواصل مع المتوفي وتعبيرًا عن الخسارة الفادحة التي حلت بالأسرة جراء وفاة فقيدهم.

وبالحديث عن **الممارسات الثقافية التي تتم عند زيارة المتوفي،** لنجدها متأثرة في المقام الأول بدافع استمرارية التواصل والتلاقي مع المتوفي من ناحية، والرغبة في التخفيف عنه والدعاء له من ناحية أخرى. فوضع الحبوب والمياه لإطعام الطيور، ووضع زعف النخيل، والحصى المقدس المقترن بالتسبيح والتكبير والاستغفار، أنما هي دلالات على ذلك متجلية في طلب الرحمة والغفران للمتوفي.

وإذا أمعنا النظر في مراسم وطقوس الموت لدى المجتمع النوبي، لنجدها تهدف في المقام الأول إلى إكرام المتوفي وتخليد ذكراه والسعي للتخفيف عنه. فإكرام المتوفي يتم من خلال الإسراع في عملية دفنه، وتخليد الذكرى يتم من خلال الحديث عن أعماله الطيبة ومواقفه تجاه الآخرين، بينما التخفيف من وحشة القبر والذنوب التي قد يكون ارتكبها المتوفي فيتم من خلال المداومة على زيارة المتوفي وقراءة ما يتيسر من القرآن له، فضلاً عن التصدق على روح المتوفي من خلال توزيع الأطعمة ووضع الحبوب والمياه على القبر. فالمراسم والطقوس المتعلقة بالموت نابعة من الثقافة النوبية التي تأثرت بالعديد من جوانبها بالشريعة الإسلامية وبعض مظاهر الحضارة الفرعونية.

وبتفسير **نتائج الدراسة في ضوء المنطلقات النظرية لرؤى العالم،** يمكننا القول بأن تصور النوبيين ورؤيتهم للموت شكلت مجموعة المعتقدات التي بدورها انعكست في الطقوس والممارسات المختلفة التي يتم القيام بها وقت حدوث الوفاة وتجاه المتوفي، كتجهيز المتوفي وتشييعه والصلاة عليه ودفنه وآلية التواصل المستمر معه (زيارة القبور). وإيمانًا بفكرة الحساب، سعى النوبيين إلى التصدق على روح المتوفي أملاً في الغفران وزيادة رصيد الحسنات للمتوفي.

كما أن رؤية النوبيين للعالم وخاصة فيما يتعلق بالموت، قد ساهم بشكل واضح في بلورة حياتهم الداخلية، مما انعكس على علاقاتهم بالعالم الخارجي. فرؤية العالم انعكست في صورة جملة من التصرفات

والأفعال ذات الدلالة الرمزية، كالحصى المقدس المقترن بالتسبيح، ووضع الحبوب والمياه لإطعام وسقي الطيور، وزعف النخيل، فضلاً عن ارتداء الملابس السوداء طوال فترة الحداد، والتي بدورها تطول فترتها كدلالة على الحزن.

وبالنظر لكافة الطقوس والممارسات المتعلقة بالموت في مجتمع الدراسة، لتجدها تتمتع بصفة الاجماع، فهي نتاج للتصورات الجمعية للنوبيين والتي نتجت عن تصوراتهم لعالم وفق ما أشار إليه دوركايم. وهذا التصور انعكس في تصنيفهم للأشياء المتعلقة بالموت، ليظهر ما هو مقدس وما هو مدنس. فالمقدس تجلى لنا في الممارسات السالف الإشارة إليها والتي تمثلت في الحصى المقدس، وسقي وإطعام الطيور، وزعف النخيل. بينما المدنس تمثل في عدم الالتزام بالقيود المفروضة على المرأة خلال فترة الحداد والتي عادة ما تقابل باللوم من قبل المجتمع، كارتداء الذهب، الخروج من المنزل طوال فترة الأربعين إلا للضرورة القصوى، النوع على فراش الزوجية خلال فترة الأربعين، عدم ارتداء الملابس السوداء طوال فترة الحداد وغيرها.

(5) خاتمة

استهدفت الدراسة القاء الضوء على مراسم وطقوس الموت بالمجتمع النوبي بما تتضمنه تلك المراسم من ممارسات ثقافية ودلالات رمزية على الحزن. وقد تبين لنا أن المجتمع النوبي يعطي قدرًا وافيًا من الاهتمام بالمتوفي يتجلى في القيام بجهيزه ودفنه تلقي العزاء به، والمداومة على زيارته، والحداد وما يتضمنه من ممارسات تعكس مدى الحزن على الفقيد.

كما تبين لنا أيضًا أن المجتمع النوبي يولي أهمية كبيرة للحداد باعتباره رمزية على الحزن، وكيف كانت النساء أكثر التزامًا بالحداد مقارنة بالرجال. كما يولي أيضًا قدرًا من الأهمية لا يستهان به لزيارة القبور باعتبارها الجسر الواصل بينه وبين المتوفي. هذا بالإضافة إلى الاهتمام بالتصدق على روح المتوفي والقيام ببعض الممارسات التي يعتقد بفاعليتها في التخفيف مما قد اقترفه المتوفي أثناء حياته.

وخلاصة القول، إن الطقوس والمراسم المتعلقة بالموت في المجتمع النوبي لعبت دورًا لا يستهان به في إعادة التوازن الناتج عن موت الفرد، كما ساهمت في تدعيم القيم الثقافية والاجتماعية، وإعادة مشاعر الأمن والطمأنينة وتعزيز وتقوية روابط الجماعة والحد من التوترات النفسية. فضلاً عن مساهمتها في تماسك البناء الاجتماعي للجماعة والمجتمع.

فالمجتمع النوبي يذخر بالعديد من العناصر الثقافية المميزة، والتي تعكس لنا الهوية والخصوصية الثقافية لهذا المجتمع، ولكنه يفتقر للاهتمام العلمي والاكاديمي لدراسة تلك العناصر دراسة أنثروبولوجية شمولية، ومن هذا المنطلق توصي الدراسة الراهنة بضرورة إيلاء المزيد من الاهتمام للمجتمع النوبي بعناصره الثقافية الثرية وذلك من خلال القيام بالدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية العلمية المتخصصة وليست العابرة لرسم صورة واضحة عن هذا المجتمع تعكس هويته وخصوصيته، مع مراعاة عدم الاقتصار على الدراسات التوثيقية لبعض عناصر التراث الشعبي للمجتمع. فنحن هنا لا نقلل من قدر الدراسات التوثيقية لتلك العناصر، بل ندعو لدراسات أكثر شمولية وتعدد للأبعاد الاجتماعية والثقافية والدينية والإيكولوجية للمجتمع. فالمجتمع النوبي لا تتوافر عنه العديد من الدراسات، والمتاح منها تم إجراءه من فترات زمنية طويلة باستثناء قلة قليلة من الدراسات الحديثة قدر ما. وبطبيعة الحال، فإن كافة المجتمعات عرضه للتغير وما يتركه من آثار على ثقافة المجتمع وبناءه، وبالتالي لا بد من القيام بالدراسات الحديثة التي تبرز لنا التأثيرات الناجمة عن هذا التغير، وإبراز العناصر التي تمكنت من الاستمرارية وعدم الاندثار، وتلك التي اندثرت بفعل التغير.

(6) قائمة المراجع:

– المراجع العربية

- أبو شنب، محمد (2019) العناصر الشعبية المرتبطة بعادات دورة الحياة عند النوبيين: دراسة ميدانية توثيقية في بعض مناطق القاهرة وأسوان. القاهرة: مؤسسة الدليل الثقافي.
- الأسود، السيد حافظ. (1993). تصور رؤية العالم في الدراسات الأنثروبولوجية. في رؤى العالم: تمهيدات نظرية. (تقديم أحمد أبو زيد). القاهرة: المركز القومي لبحوث الاجتماعية والجنائية. 1-48.
- الجوهري، محمد. (1975). بعض مظاهر التغير في مجتمع غرب أسوان: دراسة لأحد المجتمعات النوبية. القاهرة: مطبعة جامعة القاهرة.
- خضر، فارس. (2009). ميراث الأسى: تصورات الموت في الوعي الشعبي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- خميس، سعاد محمد (د.ت). عادات دورة الحياة في مجتمع المحس: دراسة أنثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية"، (د.ن).

- ريوش، الحسين (2020). طقوس وعادات الموت في الموروث الشعبي بالمغرب الأقصى. مجلة قضايا تاريخية. العدد 13. 47- 80.
- زقار، رضوان. بن عيسى، هاجر. (2019). مكانة الطقوس الجنائزية في سياق الحداد النفسي في منطقة تمنراست. مجلة آفاق علمية. 11(4): 662- 682.
- السيد، سنية. (2011). ملامح الاستمرار والتغير في عادات دورة الحياة لدة بدو الحضر: عادات الزواج والموت. المجلة الاجتماعية القومية. 18 (3): 21-52.
- شعلان، سميح عبد الغفار. (2000). الموت في المأثورات الشعبية. الجيزة: عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية.
- عبد الله، بن معمر. (2019). الأنثروبولوجيا والطقوس. مجلة الفكر المتوسطي للبحوث والدراسات في حوارات الديانات. 8(1): 139- 186، ص159.
- العشماوي، مرفت. (1991). دورة الحياة عند الفرد: دراسة أنثروبولوجية مقارنة للعادات والتقاليد الشعبية فى مجتمع رشيد. رسالة دكتوراه. جامعة الإسكندرية: كلية الآداب. قسم الأنثروبولوجيا.
- فارس، السيد.(2018). النموذج الثقافي للموت والخلود الرمزي: تحليل أنثروبولوجي نفسي لمضمون نصوص العديد. الإمارات: معهد الشارقة للتراث.
- الفرنواني، منى إبراهيم حامد. (1989). التغير الاجتماعي والثقافي في الريف المصري كما تعكسه عادات دورة الحياة: دراسة متعمقة لقرية مصرية. رسالة دكتوراه. جامعة عين شمس: كلية البنات.
- كيندي، جون (1999). طقوس الحياة في بلاد النوبة: دراسة في التغير الثقافي. (ترجمة: أحمد سوكارنو عبد الحافظ. القاهرة: مؤسسة بن خلدون للطباعة والنشر.

– المراجع الاجنبية

- Bonsu, S. K., & Belk, R. W. (2003). Do not go cheaply into that good night: Death-ritual consumption in Asante, Ghana. Journal of Consumer Research, 30(1), 41-55.
- Coleman III, T. J., Jong, J., & Van Mulukom, V. (2018). Introduction to the special issue: What are religious beliefs?. contemporary pragmatism, 15(3), 279-283.
- Huggins, C. L., & Hinkson, G. M. (2019). Contemporary burial practices in three Caribbean islands among Christians of African descent. OMEGA-Journal of Death and Dying, 80(2), 266-279.

- Kiiru, M. (2014). Going Gentle into That Good Night: Indigenous Therapy on Death in Kenya. Procedia-Social and Behavioral Sciences, 114, 298-310. p298.
- Mair, J. (2012). Cultures of belief. Anthropological Theory, 12(4), 448-466.
- Manterys, A. (2018). Cultural practices and social relations.." In Individuals and Their Social Contexts, edited by Bogdan W. Mach, Aleksander Manterys, and Ireneusz Sadowski, 113–50. Warsaw: Institute of Political Studies, Polish Academy of Sciences.
- New Zealand Law Commission. (2015). Death, burial and cremation: a new law for contemporary New Zealand. National Library of New Zealand.
- ONU, J. O., & SOLOMON-ETEFIA, P. O. (2019). A functional-semiotic investigation of traditional funeral rites and rituals in Elugwu Ezike in Igboland. International Journal of Language Studies, 13(1).
- Potočnik, M. (2017). A History of death and funeral rites: A case study of the Ga in Jamestown (Ghana). Yayınlanmamış Yüksek Lisans Tezi). University of Ghana, Ghana.
- Robben, A. C. (Ed.). (2018). A Companion to the Anthropology of Death. John Wiley & Sons.
- Shitandi, A., & Barasa, M. N. (2020). Aspects of Impact of Covid 19 on African Traditional Burial Systems.: The Case of the Bukusu of Kenya‟ s North-Western Counties, p7.
- Solomon, A. N. N. (1986). Funeral rites of the amaXhosa as therapeutic procedures compared to crisis intervention. Unpublished Master's thesis, Rhodes University, Grahamstown, p7.
- Valeri, V. (2017). Classic Concepts in Anthropology. Hau Books.
- Van der Geest, S. (2000). Funerals for the living: Conversations with elderly people in Kwahu, Ghana. African Studies Review, 43(3), 103-129.